

ما الذي قد يصنعه بن سلمان بالمملكة العربية السعودية؟

بشير موسى نافع

لم يشغل حاكم سعودي الناس منذ عقود كما شغلهم ولي العهد الحالي، محمد بن سلمان، الذي بات صاحب القرار الأول في المملكة. ولا يبدو هذا الانشغال مقصوراً على المجال العربي، أو الجوار الإقليمي لل العربية السعودية، بل والعالم بأسره.

صحافيون غربيون كبار يفردون مساحات واسعة في وسائلهم الإعلامية لمقابلاتهم معه، واسميه يتعدد منذ أسابيع بصفته شخصية العام السياسية، سواء لحجم المتغيرات التي أحدثها في بلاده، أو للإخفاقات في مغامراته الإقليمية، ولا يغيب اسمه من نشرات الأخبار حتى يعود من جديد. فأي عربية سعودية يمكن أن يصنع ولي العهد السعودي، إن نجح في إمضاء إرادته وتتوفر له من الزمن ما يكفي لتنفيذ مشروعه في الحكم؟

منذ تعيينه ولیاًً لولي العهد، أو الشخصية القيادية الثالثة في نظام حكم المملكة، في مطلع 2015، زحف الأمير الشاب بخطوات سريعة ليعزز سلطته وتحكمه في شؤون السعودية ومقدراتها. إلى جانب إعلانه ولیاًً لولي العهد، تسلم بن سلمان مقاليد وزارة الدفاع السعودية ورئاسة مجلس التنمية والشؤون الاقتصادية.

ولكن ذلك لم يكن كافياً؛ فخلال العامين التاليين، عمل على تسلم ملفات أمنية، وأخرى في السياسة الخارجية، التي كان يفترض أن تقع ضمن مسؤوليات ولي العهد، محمد بن نايف، ومجلس الشؤون الأمنية والسياسية الذي ترأسه. في صيف هذا العام، أطاح بن سلمان با بن عمه بن نايف، ليصبح ولیاًً للعهد ويحكم قبضته على وزارة الداخلية، بكافة أذرعها وقوات الأمن التابعة لها. وفي بداية تشرين الثاني/نوفمبر، تخلص بن سلمان من ابن عمه الآخر، الذي لم يكن طموحه في الملك خافياً، متعب بن عبد الله، وسيطر على الحرس الوطني، الذي يعتبر جيشاً موازيًا لقوات وزارة الدفاع. بذلك، لم يعد ثمة منافس لابن سلمان يملك أية من أدوات الدولة المسلحة أو مؤسساتها الفاعلة.

خلال 2017، أصبحت خطوات بن سلمان الجامحة نحو السيطرة والتحكم أكثر وضوحاً واطراداً لم يكن خافياً أن حرب اليمن، التي أطلقت بعد شهور قليلة من تولي الملك سلمان مقاليد الحكم، هي

مشروع الأمير الشاب الخام، بدأت الحرب بمبررات يصعب تجاهلها، بعد أن أطاح الحوثيون الحكم الشرعي في اليمن، سيطروا على البلاد بقوة السلاح، وجعلوا من جوار السعودية اللصيق منطقة نفوذ إيرانية. ولكن بن سلمان أدار الحرب بقدر كبير من التسوع وقصر النظر، بدون أن يكون لديه الاستعداد، وربما القدرة، لتحمل الأعباء المتترتبة على خوض معركة بهذا الحجم.

وليس ثمة شك أن ابن سلمان تصور أن الحرب، وما تعنيه في المواجهة المستمرة مع إيران، ستتوفر له شروط ومسوغات القيادة والسيطرة، وإنفاذ رؤيته الداخلية بدون معارضة تذكر. وبالرغم من أن التورط في اليمن، بكل تكاليفه السياسية والمالية الباهظة، كان مازال مستمراً، أشعل بن سلمان أزمة جديدة مع قطر قبل ستة شهور. وفي ظل غياب المبررات هذه المرة، لم يكن ثمة خلاف في أن سياسة القططيعة مع قطر وحصارها أريد بها الإخضاع للإرادة السعودية، التي لم يعد ثمة فاصل بينها وبين إرادة ولي العهد. خلال 2017، أصبحت خطوات بن سلمان الجامحة نحو السيطرة والتحكم أكثر وضوحاً واطراداً. أمر ولي العهد باعتقال العشرات من العلماء والشخصيات إسلامية التوجه، بصورة تعسفية، وبدون أن يثبت على أي منهم أية مخالفات قانونية أو سياسية، وبمعزل عن القضاء. تلا حملة الاعتقالات الواسعة تلك، حملة أخرى، طالت عشرات من أبناء الأسرة السعودية الحاكمة، وعشرات آخرين من كبار رجال الأعمال والاقتصاد والتجارة، باسم محاربة الفساد. في الخلفية، كان ولي العهد، مستعيناً بمجموعة صغيرة من الموالين، يتخذ حملة من الإجراءات التي تستهدف صناعة انقلاب جذري في المناخ الثقافي ونمط الاجتماع السعودي المحافظ.

إضافة إلى ذلك، وبصورة خفية، وبدون أي نقاش عام، انخرط ولي العهد السعودي في المشروع الأمريكي لتصفية المسألة الفلسطينية، متجاهلاً كل الثوابت التي اجتمع عليها الشعب السعودي، بكافة فئاته، منذ أصبحت فلسطين قضية عربية وإسلامية.

ما يحدث الآن أن ولي العهد يقود مشروعًا مفاجئاً، سرياً، وصادمياً، لبناء علاقة جديدة بين الدولة وشعبها

تحوي حملة الخطوات التي اتخذتها بن سلمان في العامين الماضيين أن الأمير الشاب لم يعد يكتفى بمرانز القوة التقليدية في المملكة: الأسرة الحاكمة، المؤسسة الدينية، القبائل والعشائر الرئيسة، ومجتمع التجار والمال والأعمال. وليس عدم اكتتراث وحسب، بل وسعى منهجي لتقويض هذه المؤسسات وتهميشهما. بخلاف الدولة الأولى، التي اقيمت على تحالف عقدي-قبلـي بين السيف والدعوة التطهـرية، والدولة الثانية، التي مزقتها صراعات الأهل وحروبـهم، استند الحكم في الدولة السعودية الثالثة إلى عملية تفاوض مستمرة مع دوائر القوة التقليدية. ليس عبد العزيز فقط، ولكن كافة من تلاه من أبناءـه، بما في ذلك الأكثرـهم دهاءـ وأوضـهم كارـيزـمة، مثلـ فيـصلـ وـفـهدـ، أدركـ أنـ فـعالـيـةـ الـحاـكـمـ وـاستـقـرارـ الـمـملـكـةـ وجـهـانـ لهـدـفـ وـاحـدـ، وـأنـ هـذـاـ الـهـدـفـ لاـ يـتـحـقـقـ بـدـوـنـ أـخـذـ مـراـكـزـ الـقـوـةـ التـقـلـيدـيـةـ فـيـ الـاعـتـبـارـ.

وبالرغم من سعي الملوك المتتابعين لبناء مؤسسات دولة حديثة، سواء من حيث الوظيفة، آلية العمل، أو

القدرة على السيطرة والتحكم، إلا أنهم حافظوا على تجنب الإيحاء بتجاهل مركز ما للقوة في المجتمع، أو الصدام معه. فيصل، الملك الذي عمل أكثر من سواه على تعزيز مركبة الدولة، عمل قبل إطاحة سعود على ضمان تأييد وولاء كافة مراكز القوة التقليدية في البلاد.

من السذاجة، بالطبع، إنكار حقيقة أن عملية التحديث الهايلة، خلال العقود الأربع الماضية، أوقعت تغييراً ملمساً في علاقات القوة وننمط الاجتماع في المملكة، وأن الدولة السعودية كانت أكثر قوة وتحكماً مما كانت عليه في الحقبة من الثلاثينيات إلى السبعينيات من القرن العشرين. ولكن هذا التغيير وقع بصورة بطيئة، تدريجية، وبدون قطيعة انفجارية وصدام واسع النطاق.

إن نجاح ابن سلمان في إنفاذ مشروعه، ستعرف المملكة الاستبداد على حقيقته ما يحدث الآن أن ولـيـ العهد يقود مشروعـاً مـفاجئـاً، سـريعـاً، وـصـدامـياً، لـبنـاء عـلاقـة جـديـدة بيـنـ الدـولـة وـشـعبـهاـ، عـلاقـة لا تـأخذـ فـيـ الـاعـتـبارـ موقعـ القـبـيلـةـ، سـلـطةـ الـعـلـمـاءـ، دورـ أـبـنـاءـ الـأـسـرـةـ السـعـودـيـةـ، أوـ مـسـاـهـمـةـ رـجـالـ المـالـ وـالـأـعـمـالـ وـالـتـجـارـةـ، وـلـاـ الدـورـ الـذـيـ قـامـتـ بـهـ مـرـاكـزـ الـقـوـةـ هـذـهـ فـيـ تمـثـيلـ المـجـتمـعـ وـعـقـلـةـ عـملـيـةـ الـحـكـمـ، وـلـيـسـ ضـرـوريـاـ أـنـ يـكـونـ ولـيـ الـعـهـدـ عـلـىـ درـاـيـةـ كـامـلـةـ بـالـخـلـفـيـةـ النـظـرـيـةـ السـيـاسـيـةـ لـلـانـقلـابـ الـذـيـ يـتـعـهـدـهـ. محمدـ عـلـيـ، الـذـيـ وضعـ أـسـسـ الدـوـلـةـ الـمـصـرـيـةـ الـحـدـيـثـةـ، لمـ يـقـرـأـ هـيـغـلـ أوـ جـيـرـيمـيـ بـاـنـشـامـ، وـلـاـ كـانـ وـاعـيـاـ بـالـأـثـرـ الـعـمـيقـ الـذـيـ سـتـرـكـهـ سـيـاسـاتـهـ عـلـىـ بـنـيةـ الـاجـتمـاعـ السـيـاسـيـ الـمـصـرـيـ.

حتى في غيبة انتخابات حرة وبرلمان وإطار دستوري، لا يصح وصف نظام الحكم التقليدي بالاستبداد؛ لأن السلطة في النظام التقليدي ليست مطلقة، بل تتبع من عملية تفاوض ومساومة وتوازنات باللغة التعقيد بين صاحب القرار ومراكز القوة المختلفة الأخرى في المجتمع. الآن، إن نجاح ابن سلمان في إنفاذ مشروعه، ستعرف المملكة الاستبداد على حقيقته؛ حيث تتعامل الدولة مع السعوديين ليس كجماعات ومراكز قوة اجتماعية، بل مجرد أفراد.

ولكن الفارق بين السعودية الجديدة، والدول المركزية الحديثة الأخرى، سيكون في حرمـانـ أـغـلـبـيـةـ هـؤـلـاءـ الأـفـرـادـ، الـمـوـاطـنـيـنـ، الـسـعـودـيـنـ، منـ التـعـبـيرـ عنـ إـرـادـتـهـمـ فـيـ مؤـسـسـاتـ حـكـمـ تمـثـيلـيـةـ منـتـخـبـةـ. بكلمة أخرى، سيمـبـحـ الـحـاـكـمـ فـيـ الـمـمـلـكـةـ الـجـدـيـدـةـ تـجـسـيدـاـ لـلـدـوـلـةـ، وـيـفـقـدـ الـمـوـاطـنـوـنـ أـيـ صـوتـ مـحـتـمـلـ لـهـمـ، تقـلـيـدـياـ كـانـ أـوـ حـدـيـثـاـ.